

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين لاسيما سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين بمناسبة يوم الغدير أحدث^١ عن بعض الجوانب المهمة المغفول عنها في خطبة رسول الله (ص)، لأن المسار الخاطئ للتعامل مع الدين يركز على أشياء متوارثة ويهمل الأشياء الضرورية التي يفترض أن يُهتم بها، ففي ذلك الحشد العظيم يروى أن رسول الله (ص) قال: (ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إليكم وأن الجنة حق وأن النار حق وأن البعث بعد الموت حق؟ فقالوا نشهد بذلك)^٢، هؤلاء الذين اجتمعوا في ذلك الحشد هم مسلمون وقد رجعوا من الحج فلم يسألهم رسول الله (ص) هذا السؤال (ألستم تشهدون أن لا إله إلا الله؟) فرسول الله (ص) قوله فصل ويتكلم بمقدار الحاجة، والكلمات التي استعملها (ص) في ذلك الوقت كلمات محسوبة معدودة فالوقت كان محدودا وكل كلمة لها حساب، فلم هذا السؤال؟

انطلاقا من هذا أريد أن أذكركم بحقيقة وهي أنك إذا تراجع نفسك تجد أنك تسلك - إجمالا - طريقة معينة في الحياة، تأكل نمطا معيناً من الطعام وفي أوقات معينة، تلبس ثيابا معينة، لك ارتباطات معينة، تصلي وتصوم وتعمل بعض الأشياء وتترك بعض الأشياء الأخرى، لا ترتكب المحرمات وتعمل الواجبات، هذه الطريقة قد تكون طريقة إنسان متدين لكنها مجرد حياة تعيشها من دون أن تكون مدروسة ومخطط لها، كثيرون من الناس هكذا، فالإنسان يولد في بيئة فيها نمط معين من المعتقدات والأفكار وبالتدريج يتربى ويكبر الشخص على هذا النحو من طريقة التفكير والمعتقدات، صلاة بنمط معين وحج بشكل معين وكذلك يتبنى أفكارا ومعتقدات بنمط معين، ومن الممكن أن يكون شديد التقيد بهذه الطريقة لكن من دون أن يراجع نفسه ويسألها: لم أنا هكذا؟

نحن نحاول أن نتقرب إلى الله تعالى عن طريق رسوله (ص)، ذلك الحشد العظيم وتلك الحالة الاستثنائية نريد أن نستفيد منها، لأن أغلب الأشخاص يوحون بشكل أو آخر بأن هذا ليس مهما ويتعاملون مع الدين من بعيد، إلى متى هذا الأسلوب من التعامل؟! غدا سوف نموت والله تعالى سيحاسبنا على هذه الحالة

تعلمون أن الحيوان يتصرف بطريقة معينة ويأكل أشياء معينة، فإذا افترضنا أننا كنا نستطيع أن نسأل هذا الحيوان أنت لم تأكل هذه الأشياء؟ ولم تعيش بهذا الشكل؟ لا يكون عنده جواب لأن الحيوان أساسا لا يعرف نفسه ولا يمكنه أن يراقب نفسه فحياته تقودها الغريزة، بخلاف الإنسان الذي له إمكانية أن يعي تصرفاته

(١) تحدث السيد محمد علي الباقر (حفظه الله) بهذا الحديث في يوم الجمعة بتاريخ ٢٠ ذي الحجة ١٤١٨ هـ، وقد تطوع بعض الأشخاص

بطباعته مع شيء من التصرف نتيجة تحويل الحديث من مسموع إلى مقروء، وقد لا يخلو من أخطاء غير مقصودة

(٢) الخصال (ص ٦٦)

ويحاسبها، فهذه من أهم خصائص الإنسان أنه يعيش بطريقة معينة ويستطيع أن يشهد - يحضر - ما يعيشه، فيستطيع أن يشهد الشهادة التي كثير نكرها

في هذه الرواية (ألستم تشهدون؟) الشهادة معناها الحضور^٣، هؤلاء كانوا يقولون (لا إله إلا الله) ويكررونها، فالسؤال: أما تحضرون هذا الكلام الذي تقولونه؟ فمعنى الشهادة يعني الحضور، مثلاً في المحاكم القضائية حينما يطلبون شهوداً، يطلبون شاهداً كان قد حضر الحادثة ورآها، هذا هو معنى الشاهد، الإنسان أقل ما يستطيع أن يفعل هو أن يحضر ويشهد على نفسه، أغلب الناس غائبون عن نفوسهم، يعني شخص لا يستطيع أن يشهد على نفسه وليس حاضراً على نفسه ولا يراقبها وليس واعياً لطريقته التي يسلكها في الحياة، فالمطلوب من الشخص أن يقول ويعمل بقصد وبتعهد

أهم ركيزة في الأذان والإقامة هي الشهادتان فيهما يكرر الإنسان الشهادة ليشعر نفسه ويذكرها بذلك، النية هي التي تجعلك واعياً أنك حينما تقول (إياك نعبد) فبتعهد تقولها، أنت حاضر وتعي أمر هذه الشهادة، هذه خاصية في الإنسان (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ)^٤، وبهذه الشهادة يصبح الإنسان إنساناً، يعني الإنسان له إمكانية أن يراقب نفسه فيستطيع أن ينظر إلى نفسه من فوق ويحاسبها، تلاحظ أنك حينما تعمل شيئاً ترى أن هذا خطأ فتأذى، تعمل شيئاً ترى أن هذا صواب فتفرح، هذه الحالة موجودة في الإنسان فهو يستطيع أن يتفاعل مع حياته مع عمله ومع قوله الذي يقوله ويشهد على ذلك

الأنبياء بُعثوا لبلورة هذه الحالة في الإنسان، لأن هذه الحالة معرضة لأن تضل وتموت فيصبح الإنسان بلا عقل (هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا)^٥، فيهبط ويصبح كالأنعام (بَلْ هُمْ أَضَلُّ)^٦، لأنه يملك إمكانية لا يملكها الحيوان فيصبح أضل لأن هذه الشهادة أهملها في طريقة حياته فيصبح من مصاديق الآية (وَلَا تُطْعَمَنْ أَعْفُلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا)^٧ يعني هو لا يعي أن له رباً موجوداً في قرارة نفسه، هذه الحالة موجودة في الإنسان لكن حينما يغفل عنها ولا يحاول أن ينميها فالتدريج تضعف وتموت، فيصبح قلبه غافلاً فتكون حركته مثل الحيوان بل أضل (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ)^٨

(٣) أشار السيد (حفظه الله) إلى الشهادة في كتاب الإمامة واللباس (ص ٩٢)

(٤) (الأعراف: ١٧٢)

(٥) (الأعراف: ١٧٩)

(٦) (الفرقان: ٤٤)

(٧) (الكهف: ٢٨)

(٨) (التين: ٤-٥)

شرائع الله عز وجل التي بُعث بها الأنبياء تستهدف أن يكون الإنسان متذكرا دائما، فالقرآن اسمه (الذكر)^٩ والنبى (ص) هو (مذكر)، حتى يبقى الإنسان دائم التذكر يعني دائم الوعي يعني يكون شهيدا وحاضرا على نفسه وتصرفاته ومعتقداته، فهذا إذا حصل لك سوف تتوفر لك الأرضية لتكون حاضرا على غيرك كذلك (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)^{١٠}، شهداء لله يعني حاضرون، كثيرا ما الإنسان يهمل نفسه وينشغل فقط بمراقبة غيره من الناس!

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)^{١١}، شهداء على الناس يعني أن هؤلاء ليسوا فقط يعرفون أنفسهم ويستطيعون أن يراقبوها ويوجهوها (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم)^{١٢}، لا فقط هذا يفعلونه بل هم يحضرون حياة الآخرين كذلك، بنفس الملاك الذي هم يشهدون على أنفسهم يكونون شهداء على غيرهم كذلك فيكون إنسانا متعهدا ومسؤولا

هذا النمط من الناس الذين واقعا أنت حينما تذكرهم تذكر ربك، هؤلاء دخلوا في قلبك وحاضرون في نفسك وأنت تستشهد بهم وتستحضرهم في نفسك، فهؤلاء بشكل واضح أصبحوا شهداء فيروهم الناس شهداء (كل مؤمن شهيد، وإن مات على فراشه فهو شهيد)^{١٣}، هذه الشهادة هي المطلوبة

يوجد طريقين في التدين ويوم الغدير بلور هذين الطريقين، في ذلك الجمع كان هناك غمطان من الناس، النمط الأول: يصلي ويصوم ويعمل المستحبات هذه الأشياء يفعلها لكن هو ليس حاضرا، يقول (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) ولكن حالة (نَعْبُدُ) لا أثر لها في طريقة تدينه وإنما يتعامل كفرد (أعبد)، يقول (إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ) ولكن لا يخطر في باله ما هو الصراط المستقيم؟ ولا يشهد بهذه الحقيقة، يقول (إِهْدِنَا) وطريقته في التدين مبنية على (اهديني) وليس (إِهْدِنَا) فهو في الواقع لا يعي تصرفاته ولا يحاسب نفسه، ويقول (صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ) ولا يعرف من هم الذين أنعم الله عليهم؟ ولا يعرف طريقتهم وصراطهم لأنه هو ليس حاضرا ولا قيما على نفسه، وإنما وُلد في بيئة معينة وعاش فيها بنفس الطريقة المتبعة، فهو يعيش ويموت ك(همج رعاع أتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح)^{١٤}

(٩) بين السيد حفظه الله معنى الذكر في كتاب (هكذا آمنت ٣) فصل (معنى الذكر))

(١٠) (النساء: ١٣٥)

(١١) (البقرة: ١٤٣)

(١٢) الكافي (٤٥٣/٢)

(١٣) بحار الأنوار (١٤٥/٥٢) نقلا عن أمالي الطوسي

(١٤) نهج البلاغة (الحكمة ١٤٧)

فهذا النمط تسيرهم الأهواء (وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا)^{١٥}، فهو لا يقود أمره ولا ينتجه بل هو لم يبحث عن أمر الأئمة (ع)^{١٦} وإنما وجد طريقة معينة في التدين وصارت أمره، فدأمره فُرطًا) يعني منفرط ليس محكما وبدون تعقل، يعني البيئة هي التي أثرت عليه وأوجدت له طريقة بهذا الشكل، ولو كان في بيئة أخرى سيتصرف بطريقة أخرى

والنمط الثاني: (متعلم على سبيل نجاة)، (يا كميل إن هذه القلوب أوعية فخيرها أوعاها فاحفظ عني ما أقول لك الناس ثلاثة، عالم رباني ومتعلم على سبيل نجاة)^{١٧}، تحوّل علمه إلى وسيلة للشهادة، في الحج يعلم (التلبية) ويعيشها ويشهدها، وكذلك شهادته (أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يحضرها ويعيها ويتعهدا

الشهادة إذن هي الإمكانية البارزة والمعلم البارز لإنسانية الإنسان وفق ما خلقه الله عز وجل، المطلوب منك أن تنمي هذه الحالة فيك، هذه الحالة معرضة لأن تموت وتضل كما هو منتشر، تنمّيها بأن تذكر نفسك: أنا متعهد أنا مسؤول أنا أصلي لله أنا أصوم لله أنا أسعى لمعرفة سبيل الله، أعرف سبيل الله وأجاهد فيه، وأعرف كيف أجاهد، بهذه النية تكون أعمالي (يا أبا ذر ليكن لك في كل شيء نية حتى في النوم)^{١٨}، أعلم لماذا أنا، أعلم لماذا آكل، أعلم لماذا ألبس هذا النوع من الملابس، حينما قيل لأمر المؤمنين (ع) هذا الثوب مرقع لم تلبسه؟ قال (يخشع له القلب وتذل به النفس ويقتدي به مؤمنون)^{١٩}، فهو (ع) يعلم أن هذا اللباس يخشع له القلب، وأنت كذلك حينما تلبس لباسا يفترض أنك تعلم بأنك تداري وتساير به الناس بعد أن عرفت الناس وعرفت وجهتهم وطريقتهم في التعامل مع الدين، هذا هو المطلوب أن يحصل

لا تتوقع أنني أنا مثلا أستطيع أن أوفر لك هذا الشيء وفقط تعتمد عليّ، حتى في عهد رسول الله (ص) لو كان القرآن الكريم وأحاديثه (ص) كافية لما كان هنالك حاجة إلى أن يسألهم ويذكرهم بالشهادة، هذا بحاجة إلى تعلم وجهاد، هذا هو الوعي هذه هي الشهادة يراك الله شهيدا بشكل عام لا أن تحمل وضعك فقط تصلي وتصوم ولا ترتكب المحرمات وتعمل المستحبات فهذا لا يكفي، بل لا بد أن تشهد بعلم على نفسك، تشهد على عملك تشهد على طريقة تدينك، تشهد على غيرك كذلك، فإذا أصبحت شهيدا على نفسك وعلى أعمالك وشهيدا على طريقة تفكيرك تستطيع أن تكون شهيدا عليّ وعلى غيري كذلك، فتعرف ماذا يعني (من أصغى إلى

(١٥) (الكهف: ٢٨)

(١٦) بين السيد حفظه الله هذه المسألة في كتاب (هكذا آمنتم ٤) فصل (ماهي (معرفة) الأئمة (ع)؟)

(١٧) نهج البلاغة (الحكمة ١٤٧)

(١٨) بحار الأنوار (٨٢/٧٤) نقلا عن مكارم الأخلاق

(١٩) نهج البلاغة (الحكمة ١٠٣)

ناطق فقد عبده) ٢٠، فتعلم ماذا أتكلم وهل هذا يزيدك هدى؟ لأن نفسك مزودة بمعرفة الهدى فنفسك تستطيع أن تعرفه ولو بالتذكير، هذه هي الشهادة

شيعة أمير المؤمنين (ع) كانوا يقولون أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله (ص)، وأشهد أن رسول الله مولى (له الولاية) لا أنه هو رسول فقط كما يتصور الكثيرون، وكانوا لا يؤاخون أحدا بلا شهادة فلسان حالهم يقول أشهد أن فلانا أخي لأني أحس بالارتباط الديني معه، هذا أشهده هذا أعلمه وليس صدفة حصل ارتباط بيني وبينه، وإنما شهدت على هذه الرابطة وأعرف منافذها وأبوابها، فإذا أستطيع أن أوقفها أو أثبتتها، وأنت كإنسان لم يخلقك الله لتلهو وتعبث بل لأن تتعامل مع الدين بجد، ومن هنا يصبح لك أمر ويصبح لك هم هنا عيد الغدير يذكرك - بشكل طبيعي - بمسؤوليتك وبتعهدك، فحينما تسعى لمعرفة أمر الأئمة (ع) وتعلمه تستطيع أن تفرق بين الناس ويحصل لك فرقان^{٢١}، وتعرف بشكل واقعي أن هنالك ممارسات دينية بلا وعي وبلا علم، كما عن الإمام الصادق (ع): (نحن العلماء، وشيعتنا المتعلمون، وسائر الناس غشاء)^{٢٢}، حقيقة هذه الرواية تجدها متجسدة في الواقع، إسع في هذا الطريق ولب رسول الله (ص) (ألستم تشهدون؟) وقل: يا رسول الله قررت أن أشهد قررت أن أكون من الشهداء قررت أن أكون من الأمة الوسط قررت أن أسعى في معرفة طريق الشهادة وأسلكه، وأن أحاسب نفسي وأسيطر عليها، فالإنسان إذا لم يكن قيما على نفسه وقواما عليها فلا يحاسب نفسه

ابدأ من الآن بالسعي والحركة في هذا الاتجاه وستلتقي بأناس يسلكون نفس الطريق ويجاهدون في سبيل الله، هذا هو الطريق الصحيح، وستشعر بأنك أصبحت مختلفا، وسوف تشعر بغربة لكن هذه الغربة تربطك بالأئمة (ع) ومعاناتهم وجهادهم، وتكون شفيعا فلا يمكن للمؤمن أن لا يكون شفيعا، في رواية (وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضر، وأقل المؤمنين شفاعا من يشفع لثلاثين إنسانا)^{٢٣}

ابدأ من اليوم أنك تريد أن تكون سيذا وخليفة الله على نفسك وعلى غيرك، لأن الله تعالى سخر لك كل شيء وجعلك مسؤولا عليه، فأنت تستطيع أن تعلم ما في نفسك وتعلم طريقك ووجهتك ووجهة غيرك، إذا سعت في هذا فالله تعالى يأخذ بيدك وهنالكَ تلتقي برسول الله (ص) وبأمر المؤمنين (ع) وتلتقي بإخوانك المؤمنين الذين يسرون في نفس الطريق، وفقكم الله تعالى لمراضيه وأعتذر من التطويل، والحمد لله رب العالمين

(٢٠) الكافي (٤٣٤/٦)

(٢١) أشار السيد حفظه الله إلى الهدف من خطبة الغدير في كتاب (هكذا آمنت ٤) فصل (خطبة الغدير)

(٢٢) الكافي (٣٤/١)

(٢٣) بحار الأنوار (٥٨/٨)